التصوير على الستور

أما التصوير على الستور فالدليل عليه ما جاء فى حديث السيدة عائشة ، قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سَهْوَة* لى بقرام† فيه تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلوّن وجهه ، وقال : يا عائشة ! أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ، قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين » . وقد استدل به بعض الفقهاء على عدم حرمة الصورة الممتهنة كالتى تتخذ على الوسائد والبُسُط ونحوها . وفى صحيح البخارى : « عن بُسر بن سعيد عن زيد بن خالد عن أبى طلحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة » . قال بُسْر : ثم اشتكى زيد فعدناه ، فإذا على بابه ستر فيه صورة ، فقلت لعُبيد الله ربيب ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : « ألم يُخبر زيد عن الصور يوم الأوّل ؟ فقال عبيد الله : ألم تسمعه حين قال : إلا رَقْمًا فى ثوب » .

ومن خطبة للإمام على عليه السلام فى وصف النبى عليه الصلاة والسلام : « ويكون الستر على باب بيته ، فتكون فيه التصاوير ، فيقول : يا فلانة ! — لإحدى أزواجه — غيّبيه عنى ، فإنى إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها . فأَعْرَضَ عن الدنيا بقلبه ، وأمات ذكرها من نفسه ، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه ، لكيلا يتخذ منها رياشا »[٦٧] .

وقال المتنبى :

نافست فيه صورة فى ستره لو كنتها لخفيت حتى يظهرا

(*) السهوة بفتح فسكون شبه الرف والطاق .

(†) القرام بكسر أوله الستر .

لا تترب الأيدى المقيمةُ فوقه كسرى مقام الحاجبين وقيصرا(٦٨)

وقال أبو العلاء المعرّى مما كتب على ستر فيه صور طيور :

الحسن يعلمُ أنّ من واريته قمرٌ تستر فى غمام أبيض
غشى الطيور غوافلًا فتحيرت منه فلم تبرح ولم تتنفّض(٦٩)

وقال عمارة اليمنى من قصيدة يمدح بها بدر بن رُزِّيك فارس المسلمين ، ويذكر حريق منظرته على الخليج ، ويذكر داره الأخرى وما فيها من الستور وتصاويرها* :

ألبستها بيض الستور وحمرها فأتت كزهر الروض أبيض أحمرا
فمجالس كُسيت رقيما أبيضا ومجالس كسيت طميما أصفرا
لم يبق نوع صامت أو ناطق إلا غدا فيها الجميع مصوّرا
فيها حدائق لم تَجُدْها ديمة أبداً ولا نبتت على وجه الثرى
لم يبدُ فيها الروض إلا مُزْهِرًا والنخل والرمان إلا مثمرا
والطير مذ وقعت على أغصانها وثمارها لم تستطع أن تنفرا
وبها من الحيوان كل مشهّر لبس الوشيج العبقرى مشهرا†
لا تعدم الأبصار بين مروجها ليثاً ولا ظبياً بوجرة أعفرا
أنست نوافر وحشها بسباعها فظباؤها لا تتقى أُسْد الشرى
وكأن صولتك المخيفة أمّنت أسرابها ألاّ تُراع وتذعرا
وبها زرافات كأن رقابها فى الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبيّة المنشا تريك من المها رَوْقًا ومن بُزْل المَهارى مِشْفَرا
جبلت على الإقعاء من إعجابها فتخالها للتيه تمشى القهقرا(٧٠)

وللقاضى الفاضل يصف ستراً عليه صور ، من قصيدة عثرنا عليها كثيرة التحريف ، فاستخلصنا منها هذين البيتين :

(*) نقلنا هذه الأبيات من « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » لعمارة ، ومن ديوانه الملحق به ، ومن « نهاية الأرب » للنويرى ، وبينها اختلاف فى رواية بعض الألفاظ ، فأثبتنا منها ما رجحنا أنه الصواب .

(†) الذى فى « نهاية الأرب » : لبس الحرير العبقرى مصورا .

والطير فى شجرات الرقم عاكفة ونُبْتُ عنهن فى التغريد بالنغم
إن لم يكن ثمرٌ فيها ففى يده ثمار جود زهت فى روضة الشيم (٧١)

وذكر المقريزى فى « خططه » ، فى الكلام على خزائن الفرش والأمتعة الفاطمية ، أنه كان بها من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها عدة مئين تقارب الألف ، فيها صور الدول وملوكها والمشهورين فيها ، مكتوب على صورة كل واحد اسمه ، ومدة أيامه ، وشرح حاله (٧٢) .

وفى مقدمة « تاريخ مدينة السلام » للخطيب ، فى وصف ما هيأه المقتدر لملاقاة رسول ملك الروم ما نصه (٧٣) : « كان عدد ما علّق فى قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة ، المصورة بالجامات (٧٤) والفيلة والخيل والجمال والسباع والطيور والستور الكبار البَصَنَّائيَّة* (٧٥) والأرمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والدَبِيقِية (٧٦) المطرّزة ثمانية وثلاثين ألف ستر » .

ويلحق بهذه الستور ستور كانت لأهل المغرب تسمى بالحائطية لتعليقها بالحيطان للزينة ، آثرنا الإشارة إليها ، وإن لم يفصح التاريخ عن تصويرها . وقد أطنب صاحب « نفح الطيب » فى وصفها ، ووصف تطاريزها ونقوشها (٧٧) ، وما كان يكتب عليها من الشعر . بل ذكر من صناعات مالقة الحصر المبهجة للبصر التى تغلف بها الحيطان (٧٨) .

ولا يبعد أن يكون تعليق الإفرنج لنفائس الطنافس ونحوها مقتبساً من هذه العادة (٧٩) ، ويظهر أنها كانت أقدم عهداً بالمشرق مما ذكر فى « نفح الطيب » ، بدليل قول ذى الرمة :

تَلْوِى الثنايا بأَحْقِيَها حواشيَه لَمَّ المُلاء بأبواب التفاريج† (٨٠)

قال البغدادى فى « خزانته » : « مراد الشاعر أن الستائر توضع وتربط على الدرابزين وأبوابها للتجمل كما يفعله الأغنياء » (٨١) .

(*) نسبة إلى بصنى . قال فى « القاموس » : إنها محركة مشددة النون ، قرية منها الستور البصنية . وفى « معجم البلدان » لياقوت أنها بالفتح ثم الكسر وتشديد النون : مدينة من نواحى الأهواز صغيرة وجميع رجالها ونسائها يغزلون الصوف وينسجون الأنماط والستور البصنية ويكتبون عليها بصنى .

(†) الثنايا : الطرق فى الجبال . والأحق جمع حقو بفتح فسكون ، وهو الخصر ، والمراد به هنا الوسط ، والضمير فى حواشيه راجع إلى السراب المذكور فى أبيات قبله . يعنى تلفّ هذه الثنايا حواشى السراب أى أطرافه على أحقيها كما تلف الملاء بتفاريج الدرابزين .

التصوير على الخيام

ولم يقتصروا على الستور ، بل اتخذوا الصور على المضارب والخيام أيضا . يدل عليه قول المتنبي يصف فازة لسيف الدولة ، وهى القبة والخيمة :

وأحسن من ماء الشبيبة كله حيا بارق فى فازة أنا شائمه
عليها رياض لم تحكها سحابة وأغصان دوح لم تغنّ حمائمه
وفوق حواشى كل ثوب موجّه من الدرّ سِمْط لم يثقّبه ناظمه
ترى حيوان البر مصطحباً بها يحارب ضد ضده ويسالمه
إذا ضربته الريح ماج كأنه تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه[٨٢]

وذكر المقريزى الخيم المصورة ، فى كلامه على خزائن الخيم من « خططه » فقال : « منها المُفَيّل والمسبّع والمخيّل والمطوّس والمطيّر* ، وغير ذلك من سائر الوحوش والطير والآدميين من سائر الأشكال والصور البديعة الرائعة »[٨٣] . ثم قال عن الفسطاط المسمى بالمدوّرة الكبيرة ، فى أثناء وصفه له : « قد صوّر فى رفرفه كل صورة حيوان فى الأرض »[٨٤] .

وذكر أيضا الخيم المصوّرة ، فى وصف احتفال وقع يوم فتح الخليج ، زمن الآمر بأحكام الله الفاطمى ، بما نصه : « وترجل الوزير فى الدهليز الثالث من دهاليزها ، وتقدم إلى الخليفة ، وأخذ شكيمة الفرس من يد الرواض ، وشق به الخيام التى جمعت جميع الصور الآدمية والوحشية وقد فرشت جميعها بالبسط الجهرمية والأندلسية »[٨٥] .

ولما وهن أمر بنى سلجوق باختلاف كلمتهم فى خلافة الخليفة الحازم المقتفى لأمر الله العباسى ، انتهز الفرصة بعد موت السلطان مسعود السلجوقى سنة ٥٤٧ ، وقام خير قيام فى تخليص الخلافة من استبدادهم ، بمعونة وزيره ابن هبيرة ، فطهر منهم العراق ، ونفذ أمره فيه جميعه من حدود حلوان إلى الكوفة ، ومن تكريت إلى عبّادان . وحدث

(*) أى المصور بأشكال الفيلة والسباع والخيل والطواويس والطير .

فى ذى الحجة من هذه السنة أنه أمر بالخطبة لولىّ عهده المستنجد ، فزينت بغداد فرحا ، وعلق أهلها التعاليق ، وعملوا قباباً صوَّرُوا فيها السلجوقيين وأمراءهم* ، فعمل بعضهم بباب الخان العتيق قبّة عليها صورة السلطان مسعود ، وخاص بك التركمانىّ ، وعباس الشحنة وغيرهم من الأمراء بخركاه[٨٦] تدور . وعلّق آخر قبّة فيها خيل عليها فرسان تدور بحركات . وعلقت بنت قادر بباب درب المطبخ قبة فيها صورة السلطان وعلى رأسه شمسة . وعلق آخر قبة على سطح داره عليها تماثيل أتراك يرمون بالنشّاب . وعلق جعفر الرقّاص قبّة عليها مشاهرات فاكهة أترج ونارنج ورمّان وثياب ديباج وغير ذلك . وعلق ابن مكّىّ الأحدب قبة عليها جماعة من الحُدب . وعمل أهل باب الأزج حذاء المنظرة أربع أرحاء تدور وتطحن الدقيق لا يُدْرى كيف دورانها وانطلق الناس فى اللعب . انتهى ملخَّصاً من تاريخ الدول والملوك لابن الفرات[٨٦] .

(*) الظاهر أنهم صوروهم استهزاء بهم بعد خلاصهم من دولتهم ومظالمها .